سعياً وراء المدهش
في أدب الطليعة

محمد سعيد الجنيدي

في ردهة طويلة تستند الى اعمدة جانبية قليلة ، استعير لها مفهوم الكهوف ، بحيث بدت مبعوجة الجوانب كصفيحة صدئة من التنك ، يبدو برميل من الماء يتساقط على سطحه نور ضعيف من طرف الردهة النائي .يبدو الماء قذراً زيتياً ، ذلك لأن الظلال المنعكسة من ذلك العمود الضخم ، التي ظهرت بصورة ما من خلال شبه الظلام الذي يعطي القاعة عمقاً غير متوقع ، توهم بأن الماء آسن حتى درجة الاحساس بطعم خاص . وعلى وجه الماء الراكد ركوداً غير طبيعي – وهذا هو المقصود من جميع الحركات الاخرى – تطفو قطعة من الخشب العادي . ويدنو منك البرميل شيئاً فشيئاً ، بحركة بطيئة تنساب من خلال موسيقى ناعمة ؛ وفجأة ، وعندما تحس بانك ستلمس قطعة الخشب ، وتتضح الوان الماء التي تختلط بالاصفرار ، يترجرج الماء على غير انتظار ، من حركة تنبع من قعر البرميل آخذة شكل فقاقيع للوهلة الاولى ، ثم موجات بطيئة ، بحيث تتحرك قطعة الخشب ، كأنما تحس بأنها ترتفع مع مدّ خاص بالماء . وتتفجر موسيقى جاز بصورة غير متوقعة . في هذه اللحظة ، تعطيك الحركات والموسيقى معنى اللا متوقع. تحس كأن شيئاً ما سيظهر من داخل البرميل. هذا الشيء يميل بك الى الاعتقاد بأنه كائن ما يطفو على سطح الماء لكي يأخذ مكان قطعة

الخشب : كأنها رمز للخلاص ، وكأن الماء رمز للبحر استطاعت قوة ما ان تحصره داخل مفهوم شمولي محسوس للانسان . ولكن ، فجأة ، يأخذك شلال من الصور المتتابعة الى موقف آخر ، كأن يلصق عينيك ويسحرهما بوجه مجدور تعطيه الظلال رمز فاجعة ، حتى لتحس بأن عمق العذاب الطافي على وجهه سيدفعك الى الغثيان .

انها تلك الحركة ، من خلال الصمت ، التي تقودك الى اللا متوقع . هي احدى حيل انطونيوني السينمائية التي يلجأ اليها للتعبير عن البناء الداخلي لنفس الانسان المعاصر.

هنا نجد انفسنا حيال وضع ما،يشبه التغلغل في عالم خاص خلال فكرة ما،واستخلاص لقيمة اخلاقية من تجارب الذاكرة . وهنا يكمن الضعف في محاولة جعل حركات الجسم مطابقة لحركة النفس والتفكير . الا انه من الواضح ان الجسم البشري لا يمكن ان يعبر عن الحالات المعقدة للنفس والعقل الا بحالات غامضة غير واضحة . ومن هنا كانت هذه الاجواء « الكهفية » ، والتوقف الفجائي ، والظلال المنعكسة على وجه بشري يبرز من بين جدارين . او كأن نرى ظلالا غامضة تزحف ببطء وتترك شتى الايحاءات ــ بانسان ، بحيوان، بجدار يتحرك لغاية ما .

البحث عن اللا متوقع ، عن المدهش ، هو الانعطاف الجديد نحو الحياة لدى انسان اوربا الجديد . ويعتبر هذا المنطلق الجديد الرد الايجابي على فلسفة الضياع ولا شيئية الحياة ووضعها في نهاياتها المحزنة . كأنه لا يجدي البحث عن اية قيمة ما دامت الحياة نفسها بلا معنى ، وما زال الانسان فاقداً للمبرر المعقول لوجوده .

في الصورة الاولى المنتزعة من احد افلام انطونيوني ، نلاحظ المحاولة ، لدى مخرجي الافلام التي تعتبر طليعية ، الى الاستعانة بالرمز : فتأخذ اسلوب التغلغل الى العمق مارة بتجربة الانسان . هذه الصور مع الرمز هي ما يمكن ان يسمى باحدى حالات الحضارة المعاصرة التي تركت الخطوط الافقية لتأخذ خطوط العمق ، وقد يصل هذا التغلغل الى درجة النزوف . والرمز يسير جنباً الى جنب مع الاسطورة ، وذلك عندما وجد الانسان الحديث في الرمز بعض منطويات التحليل النفسي التي لا تنأى كثيراً عن تعقيدات النفس الانسانية المعاصرة ،كما حاول احد المخرجين اليونان احداث تحول في المفهوم السيكولوجي في فيلم « الكترا » . وكذلك نجد ان الانسان الحديث قد تخلى عن البحث عن المعتقدات التي تنتهي عند حافة « الجدار » .

لقد خلف العالم الحديث كيركغارد يبحث عن الايمان عبثاً من منطلق لا شيئية الحياة،

وذلك في مرحلة ما من معـــاناة تجربة الفكر الحديث . وانبثق رد جديد على سؤال جديد طرحته الواقعية الجديدة في الفكر واسلوب العمل ، اذ ان الواقعية الحديثة تؤكد على ان الحياة هي، بكل بساطة ، اكثر من لحظة نعيشها ـ حتى ولو افترض انها لحظة ما تتكرر، وان الانسان يعيش لحظة ما فقط ، على اعتبار انه لا يملك من الزمن الا هذه اللحظة التي تنتهي في الغموض ، على اعتبار ان الانسان لا يملك اللحظة في المستقبل . من هنا كان لهذه اللحظة عمقها ، هذا العمق الذي يختصر تاريخ الانسان كله في نفس واحدة . الحياة اذاً ، في الرد الجديد الواقعي ، تنطوي بصورة مستمرة على العطاء ، تنطوي على المدهش. وما زالت كذلك فلينطلق الانسان للبحث عن المدهش ، ريادة العالم .

والجواب الحاضر لدى انسان اوربا الجديد هو انه يريد ان يرى العالم . لماذا ؟ بحثاً عن اللا متوقع ، عن المدهش . في كل دقيقة تختصر ابعاد العالم ، والمجتمعات تتداخل بصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ ؛ العالم كله يختصر نفسه ويتضاءل ، معطياً الانسان الحديث فرصة الكشف عن المدهش .

في هذا السياق اخذ العالم مفهومـــه لدى الكاتب الامريكي وليم بوروز ، الذي كان يعيش لوقت قريب في طنجه ويعيش الآن في باريس . وقد ركز هذا المفهوم في روايته الذاتية « الغداء العاري » واعطاه عمقاً اكثر في روايته الاخرى « الآلة الناعمة » .

وقد اخذ الشيء المدهش لدى بوروز اتجاهاً اكثر حدة في مواجهة قـــيم ومواضعات البيئات الانسانية . فقد نشر في روايته « الغداء العاري » صوراً للشذوذ الجنسي لم يسبق لها مثيل ، مما جعل روايته تتخذ طابعاً غير اخلاقي ، ولم يتيسر لها الصدور في العـــالم الانكلوسكسوني الذي كتبت بلغته الا هذا العام ،بينما نشرت في باريس قبل عدة اعوام ، وكانت كتابه الاول.ولما كانت رواية ذاتية اصبحت لها تلك القيمة كتجربة وفن وتحليل.

يركز بوروز اهتمامه في المقام الاول على اختصار العالم . فشخصياته هامشية ،ريادية؛ هم غرباء في كل مكان ، ولكنهم لا يحسون بأنهم غرباء . يبحثون دائماً عن المدهش ، وقد يجدون هذا المدهش . هناك في الواقع حس مشارك في واقعية العالم الحديث . انت اليوم في باريس ، وقد تكون غداً او بعد ساعات في هونغ كونغ ، ولكنك قد تكون في لندن بعد ساعة . حتى لتحس وانت تنتقل عبر العالم من مدينة ضخمة كلندن الى مثلها

كنيويورك، بانك لم تبدل فعلا سوى حي من الاحياء ــ هذا اذا ما تشابهت الوان الحضارة بين بلد وآخر . وهذا المفهوم واقعي جداً ، اذ انك قد تحتاج الى اكثر من ثلاث ساعات للقاء صديق لك في حي آخر من احياء لندن ، بينما لا تحتاج الى مثل هذا الزمن عندما تنتقل من لندن الى باريس او من باريس الى بروكسل ، او حتى من لندن الى روما .

الانسان اذاً ، في تجربته عبر العالم ، يعيش تجربتين: تجربة الصور الممزقة التي تنعكس في نفسه على شكل من التتابع الضبابي ، تنسي فيه الصورة الصورة ؛ وتجربة الغربة ، التي تكاد تتلاشى في بعض الحالات ، او تنعدم تماماً في كون البيئة النفسية والانسانية متيسرة في حالات قد تكون كثيرة .

ان وليم بوروز في الواقع لم يستطع حتى الآن ان يكشف عن ذلك العمق في سرطانيات العالم الحديث : ذلك انه اختار حالة من حالات الشذوذ البشري كمنطلق لتجربة انسانية غير مقبولة في واقع الانسان . ومن هنا كانت صوره شبيهة بتلك الاغنية التي تقول :

« منذ زمن وانا ارصد هذه اللحظة ،
قلت منذ زمن . لا ، انه العمر .
مثل عنكبوت يرصد ذبابة .
ولكن ، قد يفنى العمر ،
وحتى العالم يفنى ،
واللحظة تذوب في العالم .
ولكن اذا كانت هذه اللحظة النادرة قد ذابت في العالم ،
فاني سأنظم اغنية في العالم كله ،
اغنية حب وكفى ».

واذا كان وليم بوروز قد ترك شخصياته لتعيش هامشية في مدى الانحراف النفسي والشذوذ الجسدي ، وبقيت عاجزة في بعض الحالات عن فهم التحولات الخطيرة التي تجري في العالم ، كواقع نفسي محسوس ، فان الكاتب الايرلندي صموئيل بيكيت قد اعطى مفهوم العمق للنفس الانسانية في رواياته ومسرحياته . وذلك بعد ان تخلى عن واقع العالم كله ، كحقيقة مختصرة في نفس الانسان . ذلك ان يعتقد ان حقيقة اختصار العالم لم تصبح واقعاً ثابتاً بعد ، ولا تزال تعيش على السطح ؛ انها تلك الخشبة الطافية على برميل الماء : حقيقتها واضحة ، ولكنها لم تتحرك بعد ، ولم تتذبذب ، لكي تعطي

لحظة اللامتوقع .

لهذا نجد اعمال بيكيت تتمة لاعمال كافكا وهنري جيمس ودستويفسكي وجيمس جويس . الا انه لم يحقق بعد ، بصورة من الكمال ، مستويات هؤلاء . انه يعتقد بواقعية اكتفاء الانسان ، في موقف ما ، وقناعته في لحظة معينة ، حتى لو كان على صعيد الشك .

« اني اعرف ان رغباتك لا تحصى .

ربما تكون ابعد مما يتصوره الآخر بنظرة اعمق حسداً وحقداً .

ولكن الا يمكن ان تحدث تلك اللحظة الفريدة

التي تقول عندها : ان هذه اللحظة تكفي ؟»

دعني احدد هذه اللحظة : انها اللحظة التي تحب فيها حباً نادراً ، او تقتل عن شهوة، او تنتحر . ولكن كل هذا مجرد اتهام للانسان ، وافتقار لقيم التعايش في بيئة واحدة ، او نفس واحدة . ومن هنا ، من مفهوم بيكيت ، يقفز السؤال التالي : هل هناك ازمة تعايش بين الانسان الحديث ومجتمعه ،وبين نفس الانسان وجسده ؟

ولكن الاسئلة التي تطرح على هذا المستوى تستلزم تحليلا لهذه النفس . فما هي هذه النفس ؟ هل هي اكثر من شريط حساس يسجل كل توترات البيئة في اوسع مفاهيمها واشدّ تعقيداتها ؟ في رواية بيكيت « مالون يحتضر » سلسلة من الاتهامات للعالم . ذلك ان هذه الشخصية معقدة تعقيداً معضلاً ، ولكنها تعتقد ببراءتها . انها تشبه ذلك الرجل الذي كان يرسل لعناته للعالم من كهف في باطن الارض ، في رواية دستويفسكي « رسائل من تحت الارض » . ولكن اذا كان اي انسان بريئاً ، فمن هو المجرم ؟ اهو الآخر ، ام هو المجتمع ، ام كلاهما معاً ؟

هذه الاتهامات السلبية ربما تكون رداً على الظلم ، ولكنها تنتهي الى رفض العالم بانسانيته ومنطوياته . ومن هنا كانت اهميتها ، في كونها تحليلات سيكولوجية للنفس البشرية . هذه الصورة نفسها نجدها لدى كافكا ، ولكن بشكل آخر يظهر معه وكأن العالم لا ينفك عن سحق الانسان . ولكن الانسان هذا هو انسان القيم والمعتقدات ، اذ تبدو براءته حقيقة واقعة ، وان العالم فعلا ينطوي على الشر ، وان المثاليات تظهر وكأنها اشياء خارجة عن العالم متهددة بالخطر . ومن هنا يقول كيركغارد : « الايمان قوة ..

وحالما ينتصر الايمان يلحق به الآخرون . لماذا ؟ الأنه ايمان ؟ كلا . ذلك انه لو كان لهذا السبب وحده لالتحق به الناس عندما كان معاناة وألما . لم يعتنقوه لانه كانت له قـوة : لقد اعتنقوه عندما اصبح قوة وعندما اعتنقه الآخرون » .

ولكن ما هو مستقبل هذا الانغلاق في اعماق النفس البشرية ؟ اهو الجنون ؟ ام الموت؟ ام الخلاص ؟

في فيلم « خلال مرآة داكنة » يحاول المخرج السينمائي انغار بيرغمان ان يجيب بطريقته المعقدة على هذه الاسئلة . فهو يعتقد بان مشكلات الانسان الحقيقيـة تنبثق عن الجنس والعقل ، وان الاثنين يتداخلان حتى يكوّنا صورة الله . ويختار بيرغمـان في العادة انواعاً خاصة من الديكور ، قد تخفى على الكثيرين ، للتعبير عن هذه الرموز.والذين لا يعرفون حيل بيرغمان لا يفهمون منطويات الاشكال الذي يحاول ان يحله . تدور حوادث هذا الفيلم في بيت من طابقين منعزل على شاطىء مهجور ، فيه اربعـة اشخاص : والد وابنته وزوجها الطبيب وابنه. وتحس ان هناك علاقات جنسية غامضة تربط الفتاة بالاشخاص جميعهم . ولهذا يفترض بيرغمان ان تكون الابنة منحرفة عقلياً ، ثم ينسحب هذا الشك على مجموعة الاشخاص الذين اختاروا تلك البقعة من الارض مسرحاً لنشاطهم الغريب . في هذه الاثناء اختارت الفتاة القاعة الخاوية تماماً في الطابق العلوي لكي تنفرد بنفسهـا . انها تتكلم من خلال شق في الحائط مع كائن وهمي . ونفهم في النهاية ، عندما تقول : لقد رأيت الله ، انها كانت تتحدث مع الهها الخاص . ولكن في هذه اللحظة تهبط طائرة هيلوكبتر (وتراها من خلال الشق) لكي تقتلع الصورة نهائياً من عقلهـا . هنا ، وفي اللحظة الاخيرة ، تتدخل الآلة كرمز للقوة الحديثة ، للعالم الحديث الذي يشترك مـع كثير من الاشياء في تكوين عقل الانسان . ولهذا الرمز اهميته ، عندما نعرف ان ديكور هذه الردهة العلوية التي كانت تنفرد فيها الفتاة كانت صورة داخلية لدماغ الانسان . اي ان هذه الغرفة كانت ترمز الى عقل الانسان ، ولم يكن حديثها بالتالي الا مع عقلها . هذه النفس البشرية اذاً لم تعد بقادرة على تحمل تعقيدات الحياة المعاصرة ، ولم تعد بقادرة كذلك على تحمل معاناة الانغلاق في داخل الانسان ، التي كان من نتيجتها غياب التناسق الضروري بين العقل والنفس والجسد . لهذا ترى الفتاة وقد اخذت الى مصح عقلي في نهاية الفيلم .

ولعل هذا المفهوم هو مرتكز الكتّاب السيكولوجيين المعـاصرين . ويشدد اوجين

يونسكو ، في مسرحيته « الملك يموت » على هذا الانغلاق . ان صراع الرغبات البشرية يتعاظم بصورة لم يسبق لها مثيل ، وتحس فجأة ان ضجيج العالم قد تلاشى لكي ينطلق فجأة من داخل الانسان ،حتى لم تعد بقادر على تحمل هذا الضجيج ،الذي مر بالانسان، كي يكون صراخاً حاداً ينتهي شيئاً فشيئاً ـ لا ليتلاشى في العالم الخارجي وانما ليعود مرة اخرى الى داخل النفس البشرية ، منتظراً لحظة اخرى لكي ينطلق من جديد ، صراخاً حاداً مزعجاً ، في صورة رغبات مهلوسة لامتلاك العالم . ومن هنا برز رمز الانسان المثقل ، الانسان المتعب . وهنا نجد شبهاً كبيراً بين مشكلة هذا الملك الذي يحتضر بالرغم عنه ، وملك البير كامو في « كاليغولا » :كلاهما يرغب في امتلاك العالم ، وكلاهما يحاول الحصول على المستحيل . انهما يعبران عن هذا الرمز : « اني ارغب في امتلاك ما لم يرغب في امتلاكه انسان قط . قد يوجد هناك انسان ما راودته هذه الرغبة ، ولكنه لم يجرؤ على الجهر برغبته ، ولهذا اعتبر ان هذه الرغبة لم توجد لدى انسان قط ، واني انسان فريد ، ذلك لأن رغباتي فريدة » .

ولكن هل تعتبر الرغبة في المستحيل من مشكلات الانسان الحـــديث ؟ ترى ما الذي يرجوه الانسان من العالم ؟ ايكون شيئاً ما ، ولكنه غير محدد ؟

قلت ان هناك ظاهرة لدى الانسان الجديد المعاصر ، هي البحث عن المدهش ؛ ولكن ما هو الشيء المدهش ؟ الواقع ان الشيء المدهش هو كذلك شيء غير محدد ، هو مطلق. ايكون ذلك اذاً تعويضاً عن المعتقدات المطلقة؟ اذاً هناك انسان يعاني اقتلاعا من مجتمعه، من القيم التي يستند اليها المجتمع . هذا الاقتلاع هو من مشكلات الانسان الحديث .

ومن هنا جاءت ازمة كتّاب الطليعة في اوربا . الانسان الحديث انسان زئبقي، اصبح من الصعب جداً لمسه لمساً يعطي معنى الاحتفاظ في مفهوم الزمن . ولذا يتحدث الجيـــل الجديد في اوربا ، بمرارة ، عن غياب الكاتب الطليعي الذي يعبر عن الانسان الحديث عمقاً وشمولا . ويبدو انه نتيجة لذلك اصبح من الصعوبة بروز كاتب طليعي على مستوى عمق هذه التحديات في مدى عمق النفس البشرية الحديثة .

اذاً ما هو مستقبل النفس البشرية ، ما هو اعلى حدود احتمالها ؟ بيرغمان وضع الجنون كحلّ ؛ فهل هذا واقعي ؟ كافكا قتل الانسان البريء ؛ ولكن من ابقى ؟ الانسان ذا

الطبيعة الاجرامية ؟

ولكن انسان كافكا قتل لأن المجتمع رفض قيمه . انه الانسان المثـــالي : انه لم يبصق على العالم ، ولكنه لم يفهمه . وحتى في اعلى حدود الاحتمال ، عندما تحول الانسان الى حشرة كصورة من حالات الخلاص ، لم يستطع ان يحول كراهيـــة العالم له الى حب ، وعجز حتى عن تحويل هذه الكراهية الى رثاء .

هل هؤلاء الكتّاب مثاليون يعبرون فقط عن واقعهم الخاص ، كأبرياء ؟ كثير من الاسئلة تنشأ عند بحث مشكلات الانسان الحديث . والاسئلة نفسها قد تكون اجوبة في عدد من الحالات الخاصة .

ففرانسس بيكون مثلا ، الرسام المعاصر ، يجد ان افضل صورة للانسان الحديث هي الكشف عن التشويه الداخلي لنفسه : فليس صحيحاً ان الانسان الحديث معقد وحسب ، انما هو مشوه في داخله كذلك ؛ ولهذا نجد رسومه تنطوي على رعب غير متوقع . ان الصور ليست مجرد تتابع في حلقات ، انها شلال مستمر من الرعب البشري منعكس في الجسد . ولكن احتمال كون الجسد قادراً على التعبير عن الحركات النفسية والعقلية احتمال ضعيف جداً ، بل انه يكاد يكون مستحيلا . وليست هذه مشكلة الرسام فحسب ، وانما هي مشكلة المخرج السينمائي كذلك . ومن هنا نجد اورسن ولز يستعين بالظـــلال والردهات القديمة والقاعات المعتمة والمواقف الغامضة لكي تعطي عمقاً لحركات الجسد كتعبير عن مشاكل نفسية او معاناة عقلية . ويبدو ان سلفادور دالي بات الآن موضع عناية جدية كظاهرة من ظواهر هلوسة النفس البشرية المعاصرة . ان لوحته « نرجس » المعروضة في متحف التيت غاليري في لندن تعطي مفهوماً عن نزعة الرعب هذه ، عندما ندقق في وضع ذلك الوحش الذي يأكل لحماً بشرياً بينما وقف الى جانبه انسان يفكر في نفسه بعمق حتى ليخيل اليك ان هذه الاشكال ، على انواعها ، التي انتشرت حوله ، لم تكن سوى اعماقه الصارخة . انه وضع آخر للملك الذي يحتضر .

قلت ان الانسان الحديث قد تخلى عن مفهوم الحياة كمأساة . وبدأ يفتش عن المدهش في العالم . ولكن هذا المدهش يظل حافزاً ما دام الانسان يعيش غريباً باحثاً ، ولكن ماذا يحدث لو تخلى الانسان عن غربته هذه ، لو اصبح العالم غير مثير ؟

الحقيقة ان العالم سيبقى ، ولو الى مدى بعيد ، موطن اثارة ، وينابيع الدهشة ستبقى مصدراً لعطاء ضخم . وسيكون هذا نحواً ايجابياً ، وانعطافاً بنّاء .